

ابراهيم طوقان شاعر الفدائي والشهيد

محاضرة ألقيتها في نادي أساتذة الجامعات ٢١ . ١ . ٠٨ .

عاش في فلسطين بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٤١ شاعر مبدع هو خالد الذكر ابراهيم عبد الفتاح طوقان ابن نابلس التي أخرجته لفلسطين وأخرجته فلسطين للعرب وللشعر وللأدب العربي . فهذا المبدع الملهم الذي لم يعيش أكثر من ستة وثلاثين عاما ، والذي استلهم روح شعبه بشفافية نادرة ، وأحس أصدق إحساس بما يعتمل في قلوب الناس فعبر عن مشاعر الأغلبية تعبيرا في غاية الروعة ، بل عبر عن مشاعر غالبية الأمة التي ينتمي إليها ، وترك وراءه العديد من الأشعار التي تضعه في مصاف كبار الشعراء العرب . أتساءل بيني وبين نفسي دائما لماذا لم يلق من النقد والنقاد العناية التي يستحقها ولماذا لم ينتبهوا ولم يشيروا إشارة خاصة حتى اليوم إلى القمة العليا التي تقف عليها قصيدتان اثنتان ليس لهما مثل ولا مواز ولا مقارب في ديوان الشعر العربي قديمه وحديثه . وأعني بهما . طبعا . قصيدتي الفدائي والشهيد .

فهاتان القصيدتان اللتان نظم شاعر فلسطين العظيم أولاهما في عام ١٩٣٠ ونظم الثانية في العام التالي ١٩٣١ كانتا أقوى استشفاف وتمثل وتشبع بالغ الحساسية والاندماج والانتماء للشعب ولقواه الحية . وذلك ألهم الشاعر الفذ تعبيرا فذا وفريدا ومتفوقا عن نضال فذ وفريد ومتفوق ضد حلف الاغتصاب والأذي حلف الصهيونية والانتداب البريطاني الغادر . وهما عملان مختلفان تماما عن القصائد التي كانت تصف المعارك والبطولات في الشعر الجاهلي كمعلقة عنترة على جمالها وروعيتها . كما

تختلف هاتان القصيدتان أيضا عن أشعار المتنبي في العصر العباسي في تمجيد الوقائع الحربية لسيف الدولة ووصفها البليغ المائج بالحركة والحيوية .

تقدم الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان لقصيدة الفدائي في ديوان ابراهيم بقولها : ((عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين فأمعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان (يطبخها) . ولما ثقلت على العرب وطأته كمن له أحد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة بالقدس وأطلق النار عليه فأصابه بجراح .)) .

يمكننا اليوم أن نتصور النائب العام البريطاني المذكور على ضوء مطالعنا قوانينه الخبيثة التي كانت تطبيقا لأحكام صك الانتداب البريطاني على فلسطين وهو الصك الذي فصلت به الشرعية الدولية آنذاك ما أجمله وعد بلفور من قبل : فجعلت غاية البريطانيين وضع فلسطين في أحوال سياسية واقتصادية واجتماعية تسهل إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين . يمكننا تصور الكيفية التي شرع ذلك الصهيوني يستخدم بها نصوص القانون : تارة للاستيلاء على أراضي الفلسطينيين وأخرى لمعاقبة الوطنيين الفلسطينيين بلا هوادة وثالثة لتحريم أية علاقة بين الفلسطيني وبين السلاح تحت طائلة أشد العقوبات ورابعة لتهديم البنية الأخلاقية للمجتمع وخامسة لإكساب الوكالة اليهودية مركزا ممتازا في نظام الحكومة . إلى آخر هذه الأغراض والمرامي .

يمكننا بطبيعة الحال أيضا أن نستذكر حالة الإحباط والمرارة التي أحس بها الشعب العربي الفلسطيني والشعوب العربية الشقيقة كلها حين خرج العرب من الحرب العالمية الأولى مخدوعين خائبي الآمال بعدما زين لهم الغدر

البريطاني أوهام الاستقلال والدولة العربية فإذا بالغدر البريطاني يتكشف عن أسوأ تنكر للوعود وأقبح استعمار وتآمر .

تلك هي المناسبة والمعرض في الوقت نفسه على نظم هذه القصيدة ثم نظم أختها . وتمتاز قصيدتا الفدائي والشهيد بكونهما دراستين نفسييتين مذهلتين لشخصية من الشخصيات العظيمة التي تبرز في تاريخ الأمم في اللحظات الحالكة حين يصاب سائر الناس بالرهبة والإحساس بالعجز والشلل إزاء معطيات الواقع القائم الظالم ، ويشيع فيهم الاعتقاد أن العجز والشلل قدر مقدور وحجر محجور . فيأتي الفدائي ، ذلك الفرد المنتمي والمطبوع على الوفاء للمجموع الذي أنجبه .. والمنطوي على قوة الحب التي تفعل الأعاجيب .. وقد اختزن . من حيث لا يدري . غضبة المجموع وثورة المجموع . وتزود من خلال صدق انتمائه بتفويض تلقائي مطلق ملأه يقينا بأنه المعبر عن إرادة هذا المجموع ، وأن تلك الإرادة يجب حتما أن تتجسد في عمل يتخطى جميع الشروط والمعطيات التي شاء العدو أن يفرضها على رقاب الجميع . أما الفدائي فيعرف تماما الثمن الذي يتعين دفعه لتنفيذ ذلك العمل ، ولا يساوره أي تردد حيال دفع هذا الثمن وهو حياته وروحه . إنه بفعله هذا يحطم بقبضته التي ستدمى حتما قيود المستحيل التي جهد العدو لتكبييل إرادة الناس بها . إنه بذلك لا يرفع رقاب المجموع فخرا واعتزازا وكبرياء وحسب ولكنه يفتح أمام ذلك المجموع طريق الفعل المماثل ويلهم النفوس التي تشبه نفسه أن تسير في الطريق الذي ساره وأثبت أنه ممكن وأنه جدير بأن يفعله أولئك الأوفياء لحبهم ولانتمائهم ولأنبل ما لدى شعبهم من مبادئ وتقاليد وتاريخ . ومن هنا كانت هذه البطولة الفردية نقلة جبارة لا في حياة صاحبها وحسب ولكن في حياة القضية وشعب القضية .

لقد رسم ابراهيم طوقان لوحة خالدة لتلك النفس التي نتحدث عن بعض ملامحها . وقد رسمها في لوحتين متتاليتين بضربات قوية من ريشة متمكنة ذات ألوان أخاذة . وبكلمة أخرى إنه وصفها في مقطعين اثنين بلغة عربية موجزة بليغة شديدة الوقع ، وانتقى لها ألفاظا قوية الجرس واختار لها موسيقى حازمة تتخللها وقفات تنبيهية : فلنستمع إلى المقطع الأول :

لا تسل عن سلامته	روحه فوق راحته
بدلته همومه	كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا	ه بإطراق هامته
بين جنبه خافق	يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجي	أشعلت من شرارته
حملته جهنم	طرفا من رسالته
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من بسالته

فلننظر أولا إلى اللغة والألفاظ نجد العبارات قصيرة على وزن مجزوء الخفيف (فاعلاتن مستفعلن) . ويستهل الشاعر القصيدة بالبيت الأول المكون من عبارتين قصيرتين : الأولى إنشائية فيها نهي عن السؤال عن السلامة : لأن مسألة السلامة لدى الشخصية التي سيأتي عنها الخطاب مسألة جرى البت فيها مقدما فهي غير ذات موضوع ، وصورة ذلك كما يأتي تصويرها في الشطر الثاني من البيت أن هذا الرجل أو الشخصية التي يجري الكلام عنها قد وضع روحه على كفه كما يقول التعبير الشعبي

ولننظر ثانيا إلى الموسيقى التي تشبه ضربات طبل متتابعة تقطعها وقفة في نهاية كل شطر : فيفتتح الشطر بضربات : طَمْ طَمْطَمْ طَمْطَمْ طَمْطَمْ . ولكن التتابع ينتهي بحركة وسكون حادين بصورة خاصة فبدلا من طم الأخيرة تجيء : تَه التي تساويها وزنا ولكنها تفوقها حدة وقطعا لما لحرف الهاء الساكنة من وقع صارم .

ونقرأ : لا تسل عن سلامته : طم ططمطم ططمطته فاعلاتن متعجبه ته ويتكرر ذلك القطع في الأبيات السبعة الأولى : ته ته ته ته ته ته ته تكرارا يحبس الروح ويقطع النفس حتى إذا وصل نهاية البيت السابع أطلق موسيقار الشعر إشارنا وفتح القافية لتتحرك وتستوعب حركة الشخصية التي احتدمت انفعالاتها بسبب عناء الهموم التي تعصر الوطن والشعب وتشحن هذه النفس النبيلة الحساسة بالألم إلى الحد الذي باتت فكرة التضحية بالنفس وما يرتبط بها من صورة الموت والكفن لا تفارقها في منامها وقد اختمرت هذه الرؤى حتى أوصلت صاحبها إلى قرار بينه وبين نفسه حدد فيه ساعة الصفر التي سيكون فيها التنفيذ المصمم عليه . وقد بلغ من صرامة هذا القرار أنه وإن كان قرارا سريا خفيا فإنه يلفت نظر من يرى صاحبه من خلال إمارات الجدية واشتغال الذهن التي تبدو على مظهره الخارجي ، وذلك لأن حريقا قد اشتعل في قلبه بعدما اتخذ قراره المحدد . وهو حريق هائل في الدم والأعصاب يمكن لشرارة منه أن تشعل سواد الليل كأنما جيء بجذوته من جهنم نفسها . فإذا بلغت الأمور هذا الحد أطلق موسيقار الشعر القافية كما قلنا وقد أصبح الفدائي الذي اتخذ قراره الجازم لغما موقوتا أو قذيفة واقفة على حد الفداء لا تفصله عن التنفيذ إلا لحظة الصفر وهو الآن يشعر بعدما اتخذ قراره القاطع أنه صار مزودا بقوة لا تعادلها قوة حتى انعكست الآية فبدلا من أن يخشى الرجل الموت إذا

بالموت هو الذي يخشى الرجل ولذا فهو يأمر العواصف المضطربة في نفسه بالهدوء نظرا لأن شجاعته جلبت له طمأنينة يجب أن تخل من تعكيرها أية خواطر من النوع الذي يعصف بالناس العاجزين عن مثل ذلك القرار الشجاع .. نعم :

هو بالبواب واقف والردى منه خائف

فاهدئي يا عواصف خجلا من بسالته

ولننتبه إلى ملاحظة موسيقية أخرى من جديد في هذين البيتين ألا وهي عودة قافية ال تة الساكنة بعد الخلاص منها وبعدها تحررت القافية وتحركت حركتها الجميلة مع تحرر الرجل من إسهار معركته الداخلية فانسحب السكون بينما زحفت الضمة على واقف وخائف وعواصف . وهنا يعود الشاعر ليقيد القافية بالسكون من جديد تبعا لغرضين أولهما : الزخرف اللحنى الذي يتحقق بربط القافية في بسالته بالقافية في سلامته وراحته ووسادته .. الخ .. حتى رسالته : أي يحقق النسب النغمى بين البيتين الأخيرين وبين الأبيات السبعة السابقة . أما السبب الثانى فهو أن العودة إلى السكون والقطع جاء مناسبا لسياق الهدوء الذى ينبغى أن تمتثل (العواصف) لأمره بعدما انتهت معركتها بانتصار البطل عليها عندما وصل إلى القرار الحاسم . فإيقاف العواصف عند حدها استلزم قافية ساكنة تضع حدا لاندفاع العواصف الجبار .

قد يقول قائل : ها أنتم تحملون الشاعر ما لا يحتمل وتقولون إنه قصد ما لم يكن يقصد فى الواقع . ونرد على ذلك بالقول : لا . بل إن الشاعر قصد ذلك كله . ولكن علينا أن نتذكر أن الشاعر لا يقصد الأشياء عن طريق القلم والمسطرة كما يفعل الناقد المدقق وإنما عن طريق المشاعر العميقة واللغة الطيبة ممتزجتين معا فى عملية إبداع المبدع الموهوب .

ثم نأتي إلى المقطع الثاني من هذه القصيدة العبقريّة . وفيه يستمر الشاعر في استخدام قافية مفتوحة كأنما صارت انطلاقتها حقا مكتسبا للبطل الذي تحرر من حالة الاحتدام والصراع النفسي ووصل بحكم قراره الشجاع إلى حالة التفريغ والانتصار الأولي .

ويتابع الشاعر في المقطع الثاني ضربات فرشاته على الورق ولنستمع إلى المقطع الثاني :

صامت .. لو تكلمنا	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل	يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظلما
وبلادا أحبها	ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم	ضجت الأرض والسما
يا فلسطين شدما	حمل الظلم شدما
مر حين فكاد يقتله	اليأس إنما :
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من بسالته

في هذا المقطع الثاني الذي لم يكن الأخير كما سنبين فيما بعد يرسم الشاعر المزيد من معالم الشخصية التي فهمها وانطلق من حب شعبه إلى حبها لأنه رأى فيها أعظم فضائل هذا الشعب المجاهد . وهي شخصية تنتمي إلى نوع من الرجال صامت قليل الكلام . غالبا ما يعبر عن نفسه بالأفعال لا بالأقوال حتى ليظنه الذي لا يعرفه على حقيقته واحدا من الخرس . غير أن إفصاحه باليد وليس باللسان لا يرجع إلى عجز منه عن الكلام بل يرجع لصدقه المطلق ورهافة حسه الأخلاقي الذي لا يطيق

التواء عما يعتقد ويؤمن وبين ما يقدم عليه فعلا دون إحجام ودون تردد ولا تحايل على النفس ولا على الآخرين خلافا لما يفعله أصحاب الطبائع التي تجعل من الكلام بديلا عن فعل توجبه العقيدة والواجب والموقف الملح .

ويدرك القارئ من خلال هذا التصوير أن الشاعر ينتقد ذوي الطبائع الملتوية وكثيري الكلام الذين لا يغنون في حساب الجد شيئا .

ويلتفت الشاعر بعد ذلك إلى الناس المخاطبين بهذه القصيدة ، سائلا إياهم أن لا يلقوا باللائمة على هذا البطل لما قام به من سلوك سبيل العنف والقتل ، وربما تساءلنا : ومن هو الذي يلوم هذا الفدائي العظيم الذي تعشقه الغالبية؟ الجواب أنه يبدو أن بعض الفلسطينيين الذين كانت تنطلي عليهم أذاليل حكومة الانتداب البريطاني ودعاياتها وكانوا ميالين إلى إثارة السلامة بأي ثمن قد نطقوا برأي مفاده أننا في غنى عن مناقفة الانتداب البريطاني الذي كان يعمد . كما هو معروف . إلى تلهية الفلسطينيين بالمحادثات والمفاوضات والوفود المسافرة والوفود القادمة ولجان التحقيق بينما كانت المؤامرة يجري تنفيذها على الأرض فصلا بعد فصل . وكان الانتداب في الوقت نفسه جبارا في عقوباته الجماعية التي تعذب قطاعات واسعة من الناس . والبريطانيون أول من ابتدع في فلسطين طريقة جمع أعالي هي أو بلدة كبارا وصغارا في ساحة واسعة وتركهم في العراء حتى في الطقس الماطر يومين كاملين . وبعض ذوي النفوس الضعيفة من أبناء جلدتنا تميل دائما إلى جانب القوة الظاهرة وتتذلل للمحتلين . وليس نادرا أن يجأر بالشكوى من موقف التحدي أولئك الذين يكونون غالبا هم الأقل تضررا من إجراءات أعداء الشعب والقضية . بينما يقف الذين يتكبدون دفع الثمن الأعلى موقف الصمود والتحدي وقبول المخاطرة .

وابراهيم طوقان يخاطب كل اولئك الذين لا يفهمون ثورة الفدائي ولا يلتفتون لأسبابها وبواعثها فيلقت انتباههم إلى أن الأعداء أغلقوا باب الحقيقة وصمموا على مخططاتهم المعادية التي جعلت الحق باطلا والباطل حقا فلم يعد للفلسطيني إلا متاهات الظلام والأكاذيب والمنطق المقلوب وها هي البلاد التي يحبها هذا الرجل الأبوي مهيضة الجناح مهدمة الأركان وها هم الأعداء مصررون على إخضاع شعب فلسطين لمناهجهم الظالمة القاسية التي لا يقبلها منطق العدل الأرضي ولا الإنصاف السماوي ولقد ضاق هذا الفدائي الأبوي ذرعا بهذا الظلم الذي يصبه الظالمون على رأسه أثقالا حتى أوشك أن يقع فريسة اليأس القاتل إلا أنه ليس ممن يسقطون هذا السقوط وإنما هو ممن ينجون أنفسهم وشعبهم من هذا المصير البائس غير اللائق .. وها هو ذا البطل واقف بالباب يتأهب للانطلاق بينما الموت يتراجع أمام مهابته وشدة عزمه بعدما خاض معركته الداخلية التي عصفت أثناءها عواصف الأقدار والاحتمالات والخيارات الصعبة وفازت في نهاية المعركة شجاعته على الخوف وتغلبت مروءته على التردد وانتصر عزمه على الصعاب .

لقد فهم ابراهيم طوقان المثقف الحر الواعي من مجمل الأحداث والمتابعات أن الانتداب البريطاني الذي جاء لتنفيذ وعد بلفور لصالح أقلية يهودية لا تكاد تذكر في فلسطين هو انتداب معاد ولا يمكن أن يكون محايدا ولا منصفا وأن تلك الأقلية اليهودية تستقوي بالانتداب ولا حد لأطماعها .
وعلينا أن نتذكر أن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية كانت قد عقدت قبل انبثاق تبشير العمل الفدائي في فلسطين سبعة مؤتمرات وطنية بين عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٨ فلم ينجم عنها ولا عن الاحتجاجات والعرائض والمظاهرات ولا عن الوفود التي فاوضت البريطانيين في لندن وتحدثت إلى

الأوروبيين في لوزان ما يشفي النفس أو يسر خاطر . وقد شهدت نهاية المؤتمر السابع انشاقات في صفوف الزعماء وتناقضات في الآراء . ولهذا وصل ابراهيم طوقان وأمثاله من الشباب إلى الانحياز لفكرة التحرير بالقوة المسلحة وسخروا من الأساليب الضعيفة التي لا تزيد عن كونها سقوطا في فخ الخداع الشيطاني الذي يحبكه حلف الانتداب والصهيونية بغرض تنفيذ مؤامرتهم الرهيبة في هدوء . فسياسة كسب الوقت لتغيير الوقائع على الأرض سياسة متبعة منذ ذلك الوقت المبكر .

وفي البداية تابع الناس الجهود والمبادرات التي حاولها الزعماء والقادة على أمل أن تسفر عن شيء . ولكنهم وجدوها عقيمة . فصار الإصرار عليها والتمادي بها مبعثا للرفض وللسخرية من قبل الطلائع الوطنية الواعية .

ولما كان شاعرنا نجد في ديوان ابراهيم العديد من المواضع التي تحمل نقدا ساخرا يبلغ مبلغ التشكيك كما في قوله في قصيدة ساخرة :

أنتم رجال خطابات منمقة كما علمنا وأبطال احتجاجات

وقد شبعتم ظهورا في مظاهرة مشروعة وسكرتم بالهتافات

أضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم خلوا الطريق فلستم من رجالاتي

وحول هذه المعاني ذاتها تدور العديد من القصائد الناقدة المشبعة بالمرارة

والطرافة أحيانا كما في قوله :

أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحاملون عبء القضية

وبيان منكم يعادل جيشا بمعدات زحفه الحربية

واجتماع منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أمية

وخلص البلاد صار على الباب وجاءت أعياده الوردية

ويخلص في ختام القصيدة إلى القول المضحك المبكي :

في يدنا بقية من بلاد فاستريحوا كي لا تطير البقية

فالشاعر الذي يدرك طبيعة القضية الفلسطينية ومدى الأخطار المحدقة بالأرض وبالشعب ينظر باستخفاف بل وبإدانة إلى كثير من المظاهر الاصطناعية التي تلتف على حقيقة الأشياء وتضيع الأوقات في ما لا طائل من ورائه .

ومن هنا نعرف أن قصيدة الفدائي هي في بعض أغراضها نقد سياسي مفحم لأساليب القيادة التي تراوح في مكانك سر بينما الخصم يحقق على مدار الساعة أمرا واقعا على الأرض تضيع معه الأرض وتضيع القضية ذلك أن ابراهيم طوقان كان من القلة القليلة ، التي تتابع بذكاء ووعي ما يدور في الساحة السياسية من أحداث . وقد تجلّى له بوضوح أن حلف الانتداب البريطاني والصهيوني كان يلعب على الوقت ويعطل الفلسطينيين بالآمال والوعود ويلهيهم بالاجتماعات والوفود والتصريحات بينما الوكالة اليهودية ماضية في تنفيذ برامج لا يمكن إخفاؤها . ومن أهمها برنامج الهجرة اليهودية إلى فلسطين الذي ينفذ بثتى الوسائل بينما الحلف المعادي ماض في التصريحات والبيانات المخادعة .

ولنستمع مثلا :

أمامك ايها العربي يوم تشيب لهوله سود النواصي
لنا خصمان ذو حول وطول وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصوا بينهم فأتى وبالا وإذلالا لنا ذاك التواصي
مناهج للإبادة واضحات وبالحسنى تنفذ والرصاص

وإلى مثل آخر :

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة وشهدنا لجنديكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقا وفيا كيف ننسى انتدابه واحتلاله

واسمحوا لي الآن أن أعيد إلقاء القصيدة كلها معا :

لا تسل عن سلامته	روحه فوق راحته
بدلته همومه	كفنا من وسادته
يرقب الساعة التي	بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يرا	ه بإطراق هامته
بين جنبه خافق	يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى	أشعلت من شرارته
حملته جهنم	طرفا من رسالته
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من بسالته

صامت .. لو تكلما	لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته	خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل	يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى	منهج الحق مظلما
وبلادا أحبها	ركنها قد تهدما
وخصوما ببغيهم	ضجت الأرض والسما
يا فلسطين شدما	حمل الظلم شدما
مر حين فكاد يقتله	اليأس إنما :
هو بالباب واقف	والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف	خجلا من بسالته

وننتقل الآن إلى القصيدة الثانية قصيدة الشهيد ورأيي بحكم تذوقي لها أنها أشبه بأن تكون قسما ثانيا من قصيدة الفدائي . وهي تتكون . شأن قصيدة الفدائي . من مقطعين اثنين . ولكن هذا ليس وجه الشبه الوحيد بين القصيدتين . فالغريب أن قصيدة الشهيد منظومة أيضا على بحر مجزوء البسيط . وأغرب منه أن كل مقطع من المقطعين اللذين تتكون منهما قصيدة الشهيد ينتهي بلازمة من قافية مفتوحة بعد سكون حزين . نستطيع من خلال هذين النموذجين أن نتعرف على أسلوب طوقان في إدارة موسيقاه ، بل نتفهم أيضا نفسيته التي تميل للتفاؤل المعبر عنه بفتح القافية بعد سكونها على غرار اشتدي أزمة تنفرجي :

عبس الخطب فابتسم	وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى	ثابت القلب والقدم
لم يبال الأذى ولم	يثنه طارئ الألم
نفسه طوع همة	وجمت دونها الهمم
تلتقي في مزاجها	بالأعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم	إلى الراسخ الأشم
وهي من عنصر الفداء	ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة	لفحها حرر الأمم

سار في منهج العلا	يطرق الخلد منزلا
لا يبالي مكبلا	نالته أم مجندلا

فهو رهن بما عزم

نعم .. إن هذا المقطع بخاصة من قصيدة الشهيد جدير بأن يلحق بقصيدة الفدائي ويشكل مقطعها الثالث لأن الشاعر يستأنف فيه تحليل

شخصية الفدائي والإشادة بشجاعته مستخدما عبارات قوية منحوتة من الصخر والصوان . فهو يواجه الخطر الداهم مبتسما متفائلا . وهويتمتع برباطة الجأش وصفاء العقل وهو صبور على الآلام والشدائد ، تدفعه همته إلى ما تقصر عنه الهمم . وهذه النفس التي يحملها بين جنبيه نفس مسكونة بالأعاصيروحمم البراكين لشدة غضبها وإبائها كأنها شككت من البحار والجبال التي هي مثال لعناصر الطبيعة الجبارة عند ثورانها .

وكان محبا غيورا على وطنه مثقفا واعيا لا تخدعه الظواهر من ناحية أخرى فإنه أخذ يتابع أحوال الوطن متابعة الملهوف المفجوع المتألم . ذلك أن الشاعر عرف منذ تفتح وعيه على الحياة في بلاده أن القوة الانتدابية البريطانية الباغية إنما جاءت فلسطين لتلعب دورا ولتنفذ مؤامرة ضد أصحاب البلاد وأهلها الشرعيين . لقد تفتح وعي طوقان في الثلاثينيات من القرن الماضي . وكان عقد الثلاثينيات كما تعلمون هو العقد الذي تكشفت فيه سياسات الانتداب البريطاني والوكالة اليهودية

وإذا كانت القصيدتان موسومتين بتاريخ نظمهما ومناسبة ذلك النظم ، فنحن الشعب العربي الفلسطيني نرددهما اليوم كما لو كانتا مكتوبتين لتوهما ، وذلك نظرا لتواصل الظلم الواقع علينا وتواصل التحدي والنضال الذي يبديه شعبنا العظيم وتواصل البطولة والأبطال وتواصل الفدائيين والشهداء .